

علي لاغا \*

## بذور التحديات السياسية ودورها في تأزم العلاقات

### بين أصحاب المذاهب الإسلامية المعاصرة

(الصفحات ٦٩ - ٩٦)

#### ملخص

لا يمكن دراسة الفتن الطائفية التي تمرّ على العالم الإسلامي اليوم بمعزل عن دراسة الواقع المتخلف للأمة، ولا يمكن فهم طبيعة هذا التخلف دون فهم التراكمات التاريخية التي جرّت على الأمة هذه الحالة. في هذا المقال نستعرض سريعاً كل ذلك، مع مواقف الإصلاحيين لتدارك هذه الحالة، والفرص التي ضيّعها المسلمون من أجل استعادة وجودهم والتخلّص من تخلفهم، ومع تقديم تحليل لواقعنا نقدّم بعض الاقتراحات التي نراها ضرورية للتغلب على مآسي العالم الإسلامي.

#### السياسة والحوار والتفاهم أو الاختلاف:

إذا كان المعنى التقليدي لفعل «ساس» دبر الأمر ونظمه، فإن ذلك لا يتوقف عند هذا الحد بل يتعداه إلى حصرية خاصة بالإنسان العاقل دون سواه. يقول

\* - عميد كلية الدراسات العليا في جامعة الجنان ببلبنان، مدير مركز الأبحاث والتنمية .

● بذور التحديات السياسية ودورها في تأزم العلاقات....

عثمان خليل عثمان: «يتميز الإنسان عن سائر المخلوقات بالعقل، وينتج العقل المدبر أو المتأمل نتائجاً على قدر متفاوت من التنظيم نسميه فكراً، وإذا ما تعلق هذا الفكر بالجماعة العامة كان فكراً سياسياً»<sup>(١)</sup>.

والفكر السياسي، البشري، إنما هو تراكمي، أسهمت فيه كل الأمم والعقول عبر التاريخ، إنه «نتاج العقل الإنساني المتنوع بذاته وبمؤثراته» لذلك «فإنه لا يمكن بحال فصل حاضره عن ماضيه، أو الفصل فيه بين مكان ومكان، فمفكرو هذا العصر الحديث لا يعرضون ثمرة الفكر البشري التي نعرفها مجتمعا كوحدة متماسكة منذ بدء البشرية، بل التي لا نعرفها، ذلك لأن أقدم ما نعرفه من الجماعات البشرية التي ساهمت في الفكر الإنساني، إنما تأثرت حتما بفكر من سبقها أو عاصرها من الجماعات التي لم نعرفها بعد»<sup>(٢)</sup>.

والفكر السياسي هو الأكثر عراقية وكأنه «أسبق صور الفكر جميعاً» وهو «أكثر أنواع الفكر البشري نسبية أو اعتبارية» بسبب «اتصاله الوثيق بكيان الفرد وبحرياته وحقوقه العامة»<sup>(٣)</sup>.

إن دور العقل لم يغفله المسلمون الأوائل، فالقرآن الكريم شدّ انتباه الإنسان إلى قدرة العقل الذي هو مناط التكليف وأن من يفتقده غير مكلف، كما أنه، أي القرآن الكريم، عبر الإخبار عن معجزات الأنبياء والرسل ذهب بالعقل بعيداً حيث كمال المادة. إن ضرب موسى عليه السلام الصخرة بالعصا وتفجر الماء، أو شفاء المرضى حتى إحياء الموتى بإذن الله تعالى.. كل ذلك وغيره بيّن كم في هذا الكون من طاقات وقدرات وإمكانات، والسبيل إلى تحصيلها يكون فقط عن طريق العقل والتدبر والاتعاظ من تجارب الأمم السابقة، عبر القصص القرآني. كما أن الحديث الشريف أكد ذلك من خلال تأكيد الرسول (ص) نفسه إلى أن الحكم الذي يصدره إنما هو المسؤول عنه، وأنه يتأثر بقدرة المتخصصين على الإدلاء بحجتهم طبقاً لقدرة أحدهم أو كلهم التأثير على موازين الحكم عند القاضي، قال (ص): «إنكم تختصمون إليّ، ولعل بعضكم أن يكون ألحن بحجته من

بعض، فأقضي له على نحو مما أسمع منه...»<sup>(٤)</sup>.

وفي رواية أخرى: «إنما أنا بشر، وإنه يأتيني الخصم، فلعل بعضهم أن يكون أبلغ من بعض، فأحسب أنه صادق، فأقضي له...»<sup>(٥)</sup>.

إن الحكم الذي يصدره حاكم ما إنما هو حكمه وليس حكم الله تعالى، لذلك فله أجران إن أصاب وأجران إن أخطأ<sup>(٦)</sup> قال: «لا يحكم أحد بين اثنين وهو غضبان»<sup>(٧)</sup> وفي حديث آخر يتبين أن الحكم في أمر ما إنما هو تبع لقدرة مصدره على الفهم والتبصر في الأمور قال (ص) «.... وإذا حاصرت أهل حصن، فأرادوك أن تنزلهم على حكم الله، فلا تنزلهم على حكم الله، لكن أنزلهم على حكمك، فإنك لا تدري أتصيب حكم الله فيهم أم لا»<sup>(٨)</sup>.

هكذا فالإنسان وقدراته، والمسألة لا تعدو أكثر من منهجية أي برمجة لهذا العقل الذي سيتمثل ما وصله عكسًا وطردًا وفق قدراته الفطرية أولاً، وهذا متأثر بعامل الوراثية (البيولوجيا) والبيئة بدءًا من مرحلة الجنين حتى الطفولة مرورًا بكل مراحل التربية ومؤثراتها الاجتماعية، ولهذا فإننا لا نجد كل صحابة الرسول (ص) في مستوى واحد... إن النص وحده لا يمكن أن يحقق مقصده بل لابد له من وعاء يتمثله ثم يبلغه الوجهة التي كان من أجلها.. والوعاء هنا هو عقل من يحمل هذه المهمة ويدبر أمرها، لقد كانت نسخ القرآن الكريم محدودة، تعد على الأصابع في صدر الإسلام، واليوم، ليس مبالغًا القول: إنه مقابل كل مسلم توجد نسختان من كتاب الله عز وجل، والحال كما هي، لا بل فإنها في تدهور مستمر... وفي تآكل إلى حد التنافر كما هو حاصل بين المسلمين في كل دوائريهم المتداخلة، سنة وشيعة في الدائرة الأوسع، وأتباع هذا المذهب الإعتقادي أو ذاك، هذه المدرسة أو تلك، هذا الشيخ أو غيره...

والمدخل الذي ركز على التفاوت في قدرات عقول البشر، كما ركز على طريق الفهم، أي الشروحات والمناهج المتبعة في استخراج الأحكام وحل المشاكل والتخطيط ليوم غد... يهدف إلى رسم صورة متكاملة لعجز العالم الإسلامي عن

● بذور التحديات السياسية ودورها في تأزم العلاقات....

مواجهة التحديات السياسية بما تحمله من عوامل اقتصادية واجتماعية، ومن ثم تأزم أوضاعهم داخلياً إلى حد بلغ غاية الخطورة، وهذا ما سيتم التركيز عليه في هذا البحث المتواضع، وأما الأبعاد فإنه بالإمكان التعرف على ملامحها ولو بالإيجاء...

**أولاً: بذور الاختلاف بين المسلمين:**

**أ. الاختلاف من طبيعة البشر**

يقول محمد أبوزهرة: «إن من الحقائق الثابتة أن الناس يختلفون في تفكيرهم. وإذا كان العلماء يقولون: إن الإنسان من وقت نشأته أخذ ينظر نظرات فلسفية إلى الكون، فلا بد أن نقول إن الصور والأخيلة التي تثيرها تلك النظرات تختلف في الناس باختلاف ما تقع عليه أنظارهم وما يثير إعجابهم. وكلما خطا الإنسان خطوات في سبيل المدنية والحضارات اتسعت فجوات الخلاف حتى تولدت من هذا الخلاف المذاهب الفلسفية والاجتماعية والاقتصادية المختلفة»<sup>(٩)</sup>.

وقد رد أسباب الاختلاف إلى:

١- غموض الموضوع في ذاته: «إن الحق لم يصبه الناس في كل وجوهه ولا أخطأه في كل وجوهه، بل أصاب كل إنسان وجهه» وأحياناً يكون الاختلاف بسبب عدم معرفة كل طرف وجهة نظر الآخر.

٢- اختلاف الرغبات والشهوات والأمزجة: «يقول اسبينوزا: «إن الرغبة هي التي ترينا الأشياء مليحة لا بصريتنا.

٣- تقليد السابقين: يحصل ذلك «من غير أن ينظر المقلدون نظرة عقلية مجردة... وإنه ينشأ عن التقليد المتعصب، فإن قدسية الآراء التي يقلدها الشخص تدفعه إلى التعصب لها، وحيث كان التعصب الشديد كان الاختلاف الشديد.

٤- الرياسة وحب السلطان: «خصوصاً في المناهج السياسية، فإن كثيراً ممن

## ● علي لاغا

يرغبون في السلطان ينتهون إلى آراء تتعلق بالحكم، هي منبعثة من رغباتهم الخاصة، ويندفعون في تأييدها حتى يخيل إليهم أنهم مخلصون في ما يدعون إليه، وإن ما يقولونه هو محض الحق والصواب»<sup>(١٠)</sup>.

خلاصة القول إن الاختلاف من طبيعة البشر «...وإن من العبث كل العبث أن يراد صب الناس كلهم في قالب واحد في كل شيء، وجعلهم نسخًا مكررة» إلا أن هذا الاختلاف يجب أن يكون: «اختلاف تنوع لا اختلاف تضاد، والتنوع دائمًا مصدر إثراء وخصوبة، وهو آية من آيات الله الدالة على عظيم قدرته وبديع حكمته: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَانِكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّلْعَالَمِينَ﴾ (سورة الروم، آية ٢٢). وكذا الاختلاف في كل المخلوقات النباتية والحيوانية. ثم يقول القرضاوي: «فمن الناس من يميل إلى التشديد، ومنهم من يميل إلى التيسير، منهم من يسأل عن الخير ومنهم من يسأل عن الشر مخافة أن يدركه»<sup>(١١)</sup>.

إن الاختلاف بين البشر من مستلزمات بقاء الكون وإعمارها وإلا السكون ثم الفناء. وعلى البشرية عامة والمسلمين قبل غيرهم أن يدركوا ذلك، يقول تعالى: ﴿وَلَا تَسُبُّوا الَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ فَيَسُبُّوا اللَّهَ عَدْوًا بِغَيْرِ عِلْمٍ كَذَلِكَ زَيْنًا لِّكُلِّ أُمَّةٍ عَمَلُهُمْ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمْ مَرْجِعُهُمْ فَيُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ (سورة الأنعام: ١٠٨). إن هاتين الآيتين الكريمتين تشملمان تصورًا واضحًا لطبيعة العلاقات بين الأمم، وإلى أن الاختلاف بينهم ثابت ومستمر ولم يحسم أمره حتى يرث الله تعالى الأرض ومن عليها».

ونحن في هذا الكون «بمقدار فهمنا لطبيعة الوجود نتمكن من تحقيق الانسجام في كامل جوانب حياتنا الاجتماعية والنفسية والسياسية، وأكثر من ذلك يمكننا أن نتعامل بهدوء وراحة تامة مع الفهم السديد لواقع الآخرين وطبائعهم حياة وفكرًا وتصورًا»<sup>(١٢)</sup>.

## ب - آفة الاختلاف:

إن هذا الكون يعمر بالتدافع والتنافس إلى حد الصراع أحياناً وليس فيه خير مطلق ولا شر مطلق، فكل ما فيه من مسلتزمات اضطراد وجوده، والشر ينتج عن الخطأ في الأداء أو في التحليل والمزج والتركيب، فاللسان أداة الخير والخطأ في استعماله مدعاة لإحداث شر وكذا السمع والبصر والفؤاد. قال تعالى: ﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولاً، وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا إِنَّكَ لَن تَخْرِقَ الْأَرْضَ وَلَن تَبْلُغَ الْجِبَالَ طُولاً، كُلُّ ذَلِكَ كَانَ سَيِّئُهُ عِنْدَ رَبِّكَ مَكْرُوهًا﴾ (سورة الإسراء: ٣٦ - ٣٨). فالحق باق والباطل كذلك، ولا يُخرج أحدهما الآخر نهائيًا من هذا الكون، بل إن سنة الله تعالى أن يتداولوا.

الفعل والسيطرة بعلوا أحدهما على الآخر ﴿وَقُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا﴾ (سورة الإسراء: ٨١).

وقال تعالى: ﴿بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ﴾ (سورة الأنبياء: ١٨)، وإن كان ظاهر المعنى أنه ذاهب نهائيًا إلا أنه على الأرجح يتراجع ويتضح ذلك من الفعل «فيدمغه» أي يقهره وهذا منضوٍ تحت سنة التداول: ﴿وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ﴾ (سورة آل عمران: ١٤٠) أي «النصر والغلبة في الوقائع الكائنة بين الأمم في حروبها، جرت عادة الله تعالى أن يجعلها بينهم متداولة، تارة تغلب هذه الطائفة وتارة تغلب الأخرى»<sup>(١٣)</sup>.

فالمسألة إذا تخضع للسنن التي تسيّر هذا الكون. ومن أفدح الأخطاء:

### ١ - الهوى المؤدي إلى الكذب:

لقد أبدع ابن خلدون في شرحه عوامل الهدم للمجتمع الإنساني الذي يخرج منه من حال العمران إلى الهدم يحدث ذلك بالأخطاء المرتكبة في تلقي الخبر ومرد ذلك إلى:

«التشيعات للآراء والمذاهب، فإن النفس إذا كانت على حال الاعتدال في

## ● علي لاغا

قبول الخبر أعطته حقه من التمهيص والنظر حتى تتبين صدقه من كذبه، وإذا خامرها تشيع لرأي أو نحلة قبلت ما يوافقها من الأخبار لأول وهلة، وكان ذلك الميل والتشيع غطاء على عين بصيرتها عن الانتقاد والتمهيص فتقع في قبول الكذب ونقله».

«ومن الأسباب المقتضية للكذب في الأخبار أيضاً الثقة بالناقلين وتمهيص ذلك يرجع إلى التعيين والتجريح».

«ومنها الذهول عن المقاصد فكثير من الناقلين لا يعرف القصد بما عاين أو سمع وينقل الخبر على ما في ظنه وتخمينه فيقع في الكذب».

«ومنها توهم الصدق وهو كثير، وإنما يجيء في الأكثر من جهة الثقة بالناقلين».

«ومنها الجهل بتطبيق الأحوال على الوقائع لأجل ما يداخلها من التلبيس والتصنع فينقلها المخبر كما رآها وهي بالتصنع على غير الحق في نفسه».

«ومنها تقرب الناس في الأكثر لأصحاب التجارة والمراتب بالثناء والمدح وتحسين الأحوال وإشاعة الذكر بذلك، فيستفيض الإخبار بها على غير حقيقته فالنفوس مولعة بحب الثناء والناس متطلعون إلى الدنيا وأسبابها من جاه أو ثروة، وليسوا في الأكثر براغبين في الفضائل ولا متنافسين في أهلها».

«ومن الأسباب المقتضية له أيضاً وهي سابقة على جميع ما تقدم: الجهل بطبائع الأحوال في العمران فإن كل حادث من الحوادث ذاتاً كان أولاً فعلاً لا بد له من طبيعة تخصه في ذاته وفي ما يعرض له من أحواله، فإذا كان السامع عارفاً بطبائع الحوادث والأحوال في الوجود ومقتضياتها أعانه ذلك في تمهيص الخبر على تمييز الصدق من الكذب وهذا أبلغ في التمهيص من كل وجه يعرض»<sup>(١٤)</sup>.

إذا كان تشخيص ابن خلدون جامعاً مانعاً لعوامل الفتك في المجتمع البشري فإن السبب الأخير هو الجهل «بطبائع الأحوال في العمران» وأن لكل حادث أو فعل طبيعة تخصه في ذاته سيكون محور البحث عن التحديات السياسية التي أزمّت

● بذور التحديات السياسية ودورها في تأزم العلاقات....

المجتمع الإسلامي عامة مما أدى إلى اضطراب في كل حلقات سلسلته الطويلة ودوائره المتداخلة ومنها سوء العلاقة بين أصحاب المذهب.

## ٢- التحديات السياسية

### على طريق التأزم:

لقد بلغ المسلمون في ريادتهم للكون أغلب المعمورة في اتجاهاتها الأربعة ما عدا تلك التي لم تكن قد اكتشفت كما يجب، وبالتالي فإن أخصب المناطق كانت في أيديهم أدى إلى ثراء ألقى بتبعاته على الأجيال المتعاقبة، أنه ليس هناك ما يهددهم فالمناطق التي كانت خارج سيطرتهم المباشرة كان أهلها غارقين بالجهل والصراعات الداخلية، ويعيشون في مساحة قد لا تزيد على دولة مثل السودان في الوقت المعاصر، كل ما حولهم لغير صالحهم، فالمسلمون على الأبواب والجليد يقطع قسماً كبيراً من أراضيهم والضباب وسوء المناخ، والإنسان يفتش عن مخرج، فكما هو معلوم إن المخاطر مدعاة إلى التيقظ والبحث عن حل، بينما يُسر الحال والغنى المفرط يؤدي إلى الإسراف وبالتالي التراخي والإهمال.

لقد أجهد مفكرو أوروبا أنفسهم لإكتشاف الحلول وفق المعطيات المتوفرة لديهم، فوسعوا مساحة الأرض الصالحة للسكن ببناء طوابق متعددة، وفتشوا عن طريقة لاستخدام الأراضي الزراعية على مواسم متعددة، وبنوا السدود فأمنوا استقرار الاقتصاد الذي بقي في المشرق الإسلامي مرهوناً لسنوات الجفاف والمطر، مع ما يترتب على ذلك من تدمير للاقتصاد المعتمد على الزراعة وتربية المواشي. ثم التفت الأوروبيون إلى الصناعة بدءاً من تحسين غزل النسيج الذي أصبح يشد المستهلك إلى الصناعة الأوروبية بدلاً من تلك التي كانت حكراً على الشرق، الذي تحول إلى منتج ومصدر للمادة الخام من القطن والحبر، وبعد فترة تحول المزارعون إلى العجز بسبب تلك النهضة الأوروبية التي كانت شمولية في كل مرتكزات المجتمع، لقد أجهد علماء وهم العقول في تطوير المؤسسات السياسية والأنظمة الاقتصادية والتقدم في مضمار الطب لمعالجة مرضى الطاعون الذي بقي سبباً



## ● علي لاغا

أساسياً في الحوول دون تزايد عدد السكان إذا لم يؤد إلى تناقصه، فعلى سبيل المثال: «فإن القاهرة قد تعرضت لانتشار الطاعون ثماني مرات على الأقل في القرن السابع عشر، وخمس مرات أخرى في القرن الثامن عشر» وهذا ما أدى «إلى هلاك ما يتراوح بين ثلث ونصف سكان المدينة، وأغلب الظن أنه مع تكرار هذه الكوارث لم تكن تتاح للسكان الفرصة للإفاقة من هجمة من هجمات الطاعون قبل أن تأتيهم الهجمة التالية». ويذكر أن هذا المرض «أصاب مدينة حلب خمس مرات في الفترة ما بين ١٧١٩ - ١٧٦٠ - ١٧٦٢ م كما أصاب دمشق أربع مرات في الفترة ما بين ١٦٩١ - ١٦٩٢ - ١٧٣١ - ١٧٣٢ م كما أن الزراعة تراجعت نتيجة للحكم الإقطاعي وما نتج عنه من فوضى أمنية أدت إلى هجرة الريف إضافة إلى الضرائب والعشر، كون الدولة هي مالك الأراضي، والوضع الصحي فإنه على سبيل المثال كان في عام ١٧٢٠ بين كل ثلاثة واحد فقد عينه، وبين كل عشرة واحدة مصاب بالعمى الكامل في مصر وأن معدل الوفيات كان تعد بـ ٢٦/٢ في الألف وبين سكان فلسطين المسلمين بـ ٢٨ في الألف بينما كانت هذه النسبة في إنكلترا لا تتجاوز ١٢.٣ في الألف ومتوسط الأعمار في الثلاثينيات في القرن العشرين للذكور في مصر ٣١ سنة، وهذا المعدل كان نفسه في إنكلترا في أواخر القرن الثالث عشر وأنه «حيث نجد: أن واحدا فقط بين كل أربع من الفلسطينيين المسلمين، وواحداً فقط من بين كل ثلاثة مصريين كان يصل إلى سن العشرين من العمر، بينما كان يصل إلى هذه السن ثلاثة أشخاص من بين كل أربعة أولاد في إنكلترا»<sup>(١٥)</sup>.

هكذا باختصار يمكن قراءة التحول الذي حصل في أوروبا بدءاً مما ذكر مروراً باكتشاف الطاقة ومد سلك الحديد وتطوير وسائل النقل وتحسين الزراعة وتهجين البذور ثم الثورة الصناعية وصولاً إلى كل التقدم الذي أحرزوه في مجال التكنولوجيا والاتصالات دون إغفال دورهم في القضاء على الأمراض

● بذور التحديات السياسية ودورها في تأزم العلاقات....

المعدية مثل داء الكلب والسل والملاريا والجذري إلى آخر مكتشفاتهم في عالم الطب والجراحة وزرع الأعضاء. بينما كان الأمر في المقلب الآخر يدور حول قضية واحدة لا ثاني لها من هو السلطان؟ من هو الأمر الأول؟ والمتنافسون يتساقطون قتلاً أو سجنًا أو نفيًا وهم يناضلون من أجل الاستحواذ على رأس السلطة وإذا ما حاولوا التفكير في الأسباب التي أدت إلى سوء الأحوال ردوا ذلك إلى السلطان والحاكم الأول، ولي الأمر، هكذا بكل بساطة، لهذا كانوا يستشهدون بينما استطعم غيرهم من الفلاسفة الأوروبيين لذة الاستشهاد بحثًا عن اكتشاف نظرية علمية تشبع جائعًا وتلبي حاجة وتؤسس لنظام سياسي واجتماعي يخرج شعوبهم من ضيق المساحة التي كانوا يعيشون فيها إلى أرض الله الواسعة، مسترددين زمام المبادرة، وموجات التقدم والتطور عندهم إنما تبعث من داخل مراكز الأبحاث التي ترعاها الدولة والشركات المنتجة وأصحاب التجارة ورؤوس الأموال.

هذه ملامح نشوء حالة التأزم في عالمنا الإسلامي الذي مضت عليه سنة البناء والهدم التي أبدع في تصويرها ابن خلدون في كتابه/المقدمة.

**خير الدين التونسي العالم الذي خسرا المسلمون نصائحه:**

لعل الزمان لم يخل من مصلح ثاقب النظر إلا أن ابن خلدون وخير الدين التونسي قلّ مثيلهما في التاريخ. ولقد خسرا العالم الإسلامي فرصة الإفادة من مقدمة ابن خلدون فحوّلوه إلى مجرد كتاب من جملة التراث الأدبي، ويومها كان الأمر مقبولاً إلى حد ما، لكن إدارة ظهرهم لما كتبه خير الدين التونسي ١٨١٩ - ١٨٨٩ م كان ضربة مميتة، إنه بدون مبالغة شخّص المشكلة باكراً في وقت كان بالإمكان تداركها فصدر كتابه بياعثين:

«أحدهما إغراء ذوي الغيرة والحزم، من رجال السياسة والعلم، بالتماس ما يمكنهم من الوسائل الموصلة إلى حسن حال الأمة الإسلامية، وتنمية أسباب تمدنها بمثل توسيع دوائر العلوم والعرفان، وتمهيد طرق الثروة من الزراعة والتجارة، وترويج

## ● علي لاغا

سائر الصناعات، ونفي أسباب البطالة. وأساس جميع ذلك حسن الأمانة المتولد منه الأمن، المتولد منه الأمل، المتولد منه إتقان العمل المشاهد في الممالك الأورباوية بالعيان، وليس بعده بيان».

«ثانيهما تحذير ذوي الغفلات من عوام المسلمين عن تماديهم في الإعراض عما يحمد من سيرة الغير، الموافقة لشرعنا، بمجرد ما انتقش في عقولهم من أن جميع ما عليه غير المسلم من السير والتراتبين ينبغي أن يهجر... حتى أنهم يشددون الإنكار على من يستحسن شيئاً منها».

وأستغرب كيف أن السلف الصالح أخذ علم المنطق وترجم كتب الإغريق القدامى «لما رأوه من الآلات النافعة، حتى قال الغزالي: من لا معرفة له بالمنطق لا يوثق بعلمه». ثم يتساءل «فأي مانع لنا اليوم من أخذ بعض المعارف التي نرى أنفسنا محتاجين إليها غاية الاحتياج في دفع المكائد وجلب الفوائد؟».

ويتساءل عن حال هؤلاء «المنكرين لما يستحسن من أعمال الفرنج، نجدهم يمتنعون عن مجاراتهم في ما ينفع من التنظيمات ونتائجها، ولا يمتنعون منها في ما يضرهم، وذلك إما نراهم يتنافسون في الملابس وأثاث المساكن ونحوها، من الضروريات، وكذا الأسلحة وسائر اللوازم الحربية، والحال أن جميع ذلك من أعمال الافرنج. وبعد أن بيّن عدم انتفاع صنّاع البلاد من تصنيع الخامات التي تنتجها أرضهم بل يبيعونها للإفرنجي بثمن يسير، ثم يشترونها بعد تصنيعها بأضعاف مضاعفة «فليس لنا الآن من نتائج أرضنا إاقيمة مواردها المجردة» وهكذا فإن قيمة الاستيراد تزيد قيمة الدخل «فحينئذ يتوقع الخراب لا محالة» ثم يشير إلى الخلل السياسي «فإن احتياج المملكة لغيرها مانع لاستقلالها موهن لقوتها».

وينقل عن أحد الأوربيين في السياسية الحربية قوله «إن الممالك التي لا تنسج على منوال مجاورها فيما يستحدثونه من الآلات الحربية والتراتبين العسكرية

● بذور التحديات السياسية ودورها في تأزم العلاقات....

يوشك أن تكون غنيمة لهم، ولو بعد حين»<sup>(١٦)</sup>.

وينقل عن بعض أعيان أوروبا ما معناه: «أن التمدن الأورباوي تدفق سيله في الأرض، فلا يعارضه شيء إلا استأصلته قوة تياره المتتابع، فيخشى على الممالك المجاورة لأوروبا من ذلك التيار، إلا إذا حذوا حذوه وجروا مجراه في التنظيمات الدنيوية، فيمكن نجاته من الغرق».

لقد قدم سفيراً قلّد فيه ابن خلدون مع معالجته للواقع الذي عاصره، وركز على وجوب المشاورة والإفادة من أدمغة المفكرين الذين يعون تمامًا الأحوال ويعرفون السنن، فالاستبداد وخسارة خبرة الأمم الأخرى وإقصاء دور العلماء المحليين إضافة إلى الظلم كل ذلك يؤدي إلى الخراب ويشهد بما آلت إليه «ممالك الباب، كبير الديانة النصرانية، لامتناعه من الاقتداء بالتراتب السياسية المعتبرة في بقية الممالك الأورباوية، دليل واضح على ما ذكرناه» ويعود ليتحدث عن تلك الدول «وإنما بلغوا تلك الغايات، والتقدم في الأرض بعلم الزراعة والتجارة. وملاك ذلك كله الأمن والعدل، اللذان صارا طبيعة في بلدانهم» ثم ذهب إلى حديث الرسول (ص) عن العدل الذي به صلاح السلطان، وقوة الخاص والعام، وبه أمن الرعية وغيرهم». واقتبس من كتاب نصائح الملوك «إن ولي الأمر يحتاج إلى ألف خصلة، وكلها مجموعة من خصلتين إذا عمل بهما كان عادلاً وهما: عمران البلاد وأمن العباد»<sup>(١٧)</sup>.

ويقتبس صورة من تاريخ إنكلترا التي عرفت أحسن أيامها في عهد حكم الملك جورج الثالث الذي كان مجنوناً، «وما ذاك إلا بمشاركة أهل الحل والعقد ومسؤولية الوزراء لهم»<sup>(١٨)</sup>.

إن خيرالدين التونسي الذي استشف المستقبل من خلال رؤية بعيدة استطاع أن يتخيل واقع العالم اليوم «ثم إذا اعتبرنا ما حدث في هذه الأزمان، من الوسائط التي قربت تواصل الأبدان والأذهان، لم نتوقف نتصور الدنيا بصورة بلدة متحدة تسكنها أمم متعددة، حاجة بعضهم لبعض متأكدة»<sup>(١٩)</sup>.

## ● علي لاغا

وكانه رأى العولة بصورتها الحالية اليوم إلا أنه بدلاً من تشخيص المرض، والانكباب على دراسة أسباب الأزمة التي أدت إلى ضعف العالم الإسلامي من خلال دراسة الجذور الفكرية التي أحدثت العقم والجذب في فكر المسلمين، انصرفت الدولة العثمانية إلى استيراد الحل بتقليد في الظاهر دون المضمون لما كان معمولاً به في أوروبا.

إن مشكلة المسلمين بدأت باكراً. لأكثر من سبب وسبب، أهمها كمون عوامل ضعف اعتورتها ولم تكن ظاهرة للعيان في بدايتها، خاصة وأن جيش الفتح كان أغلبه من الأعراب الذين عجزوا عن تبليغ الإسلام كما هو في نقاوته، ومع الأيام كبرت الظواهر الشاذة لتتولد «دولاً ذات نعرات قبلية وعرقية وخليطاً من من توجهات إسلامية» ثم تتضاعف الأزمة «والمرض في جسد الأمة» فتمثلت «في ذبوع المذاهب الشعبية والعنصرية القومية».

واستمر الوضع بين مدّ وجزر إلى أن تبينت الدولة العثمانية أن العالم الأوروبي أصبح أكثر تفوقاً وأن نظامها أمام تحديات جدية لذلك لجأت «بقوة وعزم منذ القرن الثامن عشر الميلادي وعلى يد السلطان سليم الثالث بتقليد الأجنبي الأوروبي واعتبرت ذلك التقليد سبيلها الوحيد إلى القوة وإعادة البناء».

و«بدأت دورة الفراغ والضياع في رحي التقليد الأجنبي سعياً إلى نقل المعرفة والخبرة والعلوم الفنية والتقنية والأجنبية، وقامت الدولة ببناء أول مدرسة للهندسة والعلوم وأول مدرسة عسكرية حديثة لتدريب وتكوين قوات على النمط الأوروبي «وبلغ من زخم التصميم على ذلك أن أحرقت ثكنات للانكشارية بمن فيها بسبب معارضتهم الشديدة للنمط الأوروبي».

وأنه بالرغم من كل البعثات الدراسية إلى أوروبا «عاد التركي المثقف ثقافة غربية ليضيف منطلقاً جديداً في التقليد وهو ضرورة الإصلاحات السياسية والاجتماعية على النمط الأوروبي» التي توجت في النصف الأخير من القرن التاسع عشر الميلادي لما عرف بدستور مدحت باشا «ومن المعلوم كحقيقة من حقائق

● بذور التحديات السياسية ودورها في تأزم العلاقات....

التاريخ أن تلك الخطة في التقليد وذلك الأسلوب في المحاكاة لم يفلح في تحقيق القوة ومواجهة التحدي ونقل المعرفة واستنباتها في كيان الأمة إذ استمر تقهقر القوة العثمانية أمام أوروبا واستمر نمو القوة الأوروبية.

والحقيقة الثابتة أن الدولة التركية ومثلها بقية الدول الإسلامية. «لم تتحسن أحوالها بل استمرت في التدهور رغم أنها مرت بكل مراحل التقليد الأجنبي» في مختلف الميادين العلمية والعسكرية والإدارة «وتبنى المفاهيم الليبرالية، وترجمة الثقافة الغربية، وإدخال التغييرات السياسية والدستورية، وتبنى مفهوم الوطنية والقومية، والأخذ بمفهوم العلمانية واللا دينية، وتبنى القوانين والأنظمة الأوروبية، وتطوير مؤسسة الدولة للسيطرة على المؤسسات الاجتماعية والاقتصادية والمالية» إلا أن «كل ما أنتجه هذا التقليد والمحاكاة هو مزيد من ضعف تركية وانحطاطها، وانتهت إلى الوقوع في القبضة الكاملة للنفوذ الغربي».

إن ما تلخصه رحلة الدولة العثمانية بحثاً عن الخلاص حاكته مناطق عربية أخرى بدءاً من التجربة العربية المصرية على يد محمد علي باشا في مصر منذ مطلع القرن الثامن عشر الميلادي، اللهم إلا ما وفرته الدول الأوروبية حينها من قوة عسكرية آلت إلى الأفول بعد أن فعلت فعلتها في إنهاك قوة الدولة العثمانية المريضة، تجلى ذلك بحملتين عسكريتين الأولى بقيادة طومسن باشا إلى الجزيرة العربية والثانية بقيادة إبراهيم باشا (وكلاهما متبني لمحمد علي الذي لم ينجب أولاداً) حيث وصلت مجتازة بلاد الشام وصولاً إلى أضنه، والجدير بالذكر أن هذه الحملة أسست للمشاكل الطائفية في لبنان التي ما زالت مفاعلها تتداعي حتى يومنا هذا.

«وحتى اليوم وكل ما تلاها من تجارب في البلاد العربية والإسلامية في آسيا وإفريقيا، لما وجدنا فيها جديداً يُضاف إلى التجربة التركية وآثارها الوخيمة. وما يزال العالم الإسلامي على مرّ هذه القرون - مع تجربة الأجنبي الدخيل - مريضاً ممزقاً متدهوراً في صورته العامة، وما تزال الهوية الحضارية بينه وبين بلاد الغرب

المتقدمة تزداد عمقًا واتساعًا لغير مصلحته»<sup>(٢٠)</sup>.

هذه تجارب سابقة مع مسميات دخلت عليها في عصرنا الحديث: الديمقراطية وألتها، الانتخابات النيابية كعامل إصلاح، بعدما انكفأت تجربة الاشتراكية والتقدمية مع ما تركته من مأس وويلات، وهذا ما سيتم بحثه لاحقًا.

### رحلة شتات الأمة

إن الجسم الذي يضعف من داخله تتضاءل عنده قوة المناعة، ومهما كان البناء ضخماً وأعمدته ضعيفة فمآله السقوط وهذا يحدث بعشوائية ودون انتظام، ولعل الحرب العالمية الأولى كانت نهاية تآكل جسم الأمة في ما سبق من العقود ومحاولات التخبط بحثاً عن ترياق يحد من انتشار المرض من الأطراف حتى القلب. وفي لحظة من الضعف أدرك السلطان عبدالعزيز مقولة المفكر السياسي الإيطالي نيقولا ميكافيلي إلى الاستعانة بالدول الأخرى للدفاع عن الدولة هو السبيل لتدخل هذه الدولة بشؤونها، وبعدما خرج من حرب القرن أدرك أن تحالف دول مع دولته «لم تكن نتيجته إلا إضعافها بالتدخل في شؤونها الداخلية ومساعدة الطوائف المسيحية الخاضعة لها على الانشقاق عنها وبث روح الفتن والفساد في ممالكها تحت غطاء الحرية ونشر العلوم» عندها فكر بجل عن طريق التحالف مع روسيا مباشرة وضم الأقاليم المسيحية إليها مع إبقاء الولايات التي يغلب فيها العنصر الإسلامي للدولة العلية العثمانية. عندها يمكن أن يحد من خسائره فلم «يرق ذلك لهم في أعين الدول الأوروبية التي لها مصالح في الشرق وخصوصاً إنكلترا فأخذ عملاؤهم وسفراؤهم الظاهرون والسريريون يلقون الوسواس في عقول السذج من أهل الأستانة وينسبون للسلطان التبذير والإسراف وعدم الأهلية لإدارة مهام الملك... وما زالوا يوسوسون ويلقون بذور الفساد حتى أقنعوا الوزراء بوجوب عزله وأن إقالته من الأعمال الواجبة لانتظام الدولة وسيرها على المحور المستقيم» ولاقى هذه المسائل أدناً صاغية لدى بعض المشايخ وإذا

● بذور التحديات السياسية ودورها في تأزم العلاقات....

بفتوى يصدرها شيخ الإسلام حسن خيرالله أفندي هذا نصها: «إذا كان زيد الذي هو أمير المؤمنين مختل الشعور وليس له إمام في الأمور السياسية وما برح ينفق الأموال الميرية في مصارفه النفسانية في درجة لا طاقة للملك والملة على تحملها وقد أخل بالأمور الدينية والدنيوية وشوّشها وضرب الملك والملة وكان بقاؤه مضرًا بها فهل يصح خلعه؟

الجواب يصح

كتبه الفقير حسن خيرالله عفى عنه<sup>(٢١)</sup>.

وفي يوم الاثنين ٦ جمادى الأولى ١٢٩٣ هـ الموافق ٢٩ مايو ١٨٧٦ خلع السلطان عبدالعزيز وتمت البيعة للسلطان مراد الخامس.

لعل رسالة السلطان المخلوع عبدالعزيز إلى ابن شقيقه السلطان الجديد، تكشف نزاهة الأمر والحالة العجيبة الغربية التي وصلت إليها الأمور: «بعد اتكالي على الله تعالى وجهت اتكالي عليك فأهنتك بجلوسك على تخت السلطنة وأبين لك ما بي من الأسف على أنني لم أقدر على أن أخدم الأمة حسب مرادها فأومل أنك أنت تبليغ هذا الأرب وأنتك لا تنسى أنني تشبثت بالوسائل الفعالة لصيانة المملكة وحفظ شرفها وأوصيك بأن تتذكر أن من صيرني إلى هذه الحالة هم العسكر الذين سلحتهم أنا بيدي وحيث كان من دأبي دائماً الرفق بالمظلومين وشملهم بالمعروف الذي تقتضيه الإنسانية أربغ إليك أن تنقذني من العناء الذي صرت إليه وتعين لي حملاً أكثر ملاءمة لي وأهنتك بأن الملك انتقل إلى ذرية أخي عبدالمجيد خان.

الإمضاء: عبدالعزيز.

هكذا مات عبدالعزيز متهماً بالجنون والتبذير وعندما اكتشف خلفه اللعبة وحاول إصلاح الدولة تم اتهامه أيضاً من الجهة نفسها بأنه مضطرب الأعصاب وتم خلعه بفتوى جديدة وتسليم الدولة للسلطان عبد الحميد خان الثاني بعد مرور شهر فقط على تسلم السلطان مراد وكانت الفتوى «إذ جن إمام المسلمين جنوناً مطبقاً



ففات المقصود من الإمامة فهل يصح خلع الإمامة من عهده؟

الجواب

يصح والله أعلم كتبه الفقير حسين خير الله عُفي عنه»<sup>(٢٢)</sup>.

وبالفتوى جاء السلطان عبدالحميد ثم بالفتوى نفسها تمّ خلعه، لكن الفقير هذه المرة فقير آخر «اجتمع المجلس العمومي اجتماعاً سرياً وخلع عبدالحميد بموجب فتوى شيخ الإسلام هذا نصها: «إن اعتاد زيد الذي هو إمام المسلمين أن يرفع من الكتب الشرعية بعض المسائل المهمة الشرعية وأن يمنع بعض هذه الكتب ويمزق بعضها ويحرق بعضها وأن يبذرويسرف في بيت المال ويتصرف فيه بغير مسوغ شرعي وأن يقتل الرعية ويحبسهم وينفيهم ويغربهم بغير سبب شرعي وسائر أنواع المظالم ثم أدعى أنه تاب وعاهد الله وحلف أنه يصلح حاله ثم حنث وأحدث فتنة عظيمة جعلت أمور المسلمين كلها مختلفة وأصر على المقاتلة وتمكن منعة المسلمين من إزالة تغلب زيد المذكور ووردت أخبار متواليّة من جوانب بلاد المسلمين أنهم يعتبرونه مخلوعاً وأصبح بقاؤه محقق الضرر وزواله محتمل الصلاح. فهل يجب أحد الأمرين خلعه أو تكليفه بالتنازل عن الإمامة والسلطنة على

حسب ما يختاره أهل الحل والعقد وأولو الأمر من هذين الوجهين؟

الجواب: يجب. كتبه الفقير السيد محمد ضياء الدين عفي عنه»<sup>(٢٣)</sup>.

توضيح:

إن ما تم اقتباسه لم يكن المقصد منه إعادة النظر في أسباب سقوط الدولة العثمانية وأحوالها، وإن كان ذلك مدخلاً لفهم الحال الذي آلت إليه الأمة الإسلامية بعد الحرب العالمية الأولى ونشوء الكيانات الجديدة، إنما الهدف مما ذكر استعادة صورة المفكر المسلم أو المفتي المسلم «شيخ الإسلام» أوفي أحسن الأحوال منهج التفكير والتحليل والتخطيط لدى القيميين على شؤون البلاد والعباد. ثم إن الأخطر من ذلك هو استمرار حالة السذاجة وطبقة القلب وعدم قراءة الماضي للتعاطف والحاضر لدراسة النتائج والمستقبل لبناء غد أجمل وأفضل.

### في خدمة المحتل :

لقد كانت التجربة الأولى في مصر الكنانة حيث تخيل المعارضون للدولة العثمانية أن منبراً للأحرار قد انتصب، وأخذوا يتجمعون من كل أقطار الدولة العلية في مصر حيث أعطوا حرية الكتابة والتأليف وليس لبعث نهضة علمية، ولا لإصلاح النظم الاجتماعية، ولا للتفتيش في مركز أبحاث لإيجاد عقارين تقذ طفلاً يتهده الموت بسبب الأمراض أو الأوبئة، بل لتصويب وتسديد سهام ضد السلطان العثماني، فكانت المجالات والجرائد والروايات التي تتحدث عن الاستبداد والظلم والفساد في الأستانة. وكان ممن هب كي يحظى بفرصة التعبير عن آرائهم السياسية السيد محمد رشيد رضا الذي فشل بعض أصدقائه في طرابلس الشام بإقناعه كي يبقى يكتب في كل ما يريد دون التهجم على السلطنة، ومن على شاطئ البحر في القلمون تمكن من الهرب على متن أحد القوارب. وفي مصر لم ينجح معه الإصلاح محمد عبده وثنيه عن مهاجمة الدولة العثمانية وصرفه إلى التربية والتعليم مقدماً له عصارة خبراته، وهو الذي كان قد انتفض مع عرابي باشا ضد الإنكليز إلا أن السيد محمد رشيد رضا أصر على محاربة السلطان عبد الحميد الثاني وحكومته ونظامه عبر مجلة المنار التي توقفت بعد مماته عام ١٩٣٥م.

إن مسيرة محمد رشيد رضا تلخص رحلة كل من سبقه أو خلفه إلى يومنا هذا. وما إن وضعت الحرب العالمية الأولى أوزارها وتقاسم المنتصرون تركة الدولة العثمانية ووضعوا فلسطين والعراق تحت الانتداب البريطاني عندها أدرك محمد رشيد رضا أن منتدى الأحرار قد أغلق وكمت الأفواه وأكثر من ذلك عندما ألقى جنود فرنسيون القبض عليه بسبب حيازته لبعض صفحات من تفسير المنار لآيات القرآن العظيم.

لقد بقي محمد رشيد رضا حياً وهو يرى فلسطين تسلم للحركة الصهيونية على طريق بناء دولتها، عندها أدرك أنه وقع في الفخ تماماً كما أدرك ذلك الأمير

## ● علي لاغا

فيصل بن الشريف حسين الذي قاد الثورة العربية الكبرى التي كان مهندسها الفعلي الضابط الإنكليزي لورنس، وإن كان الأمير فيصل عرف ذلك يقيناً عندما حضر مؤتمر الصلح في سان ريمو ١٩١٩ ميلادي، إلا أن موقعة ميسلون على مشارف دمشق حيث استشهد يوسف العظمة كان لها اليقين الذي توقعه من قبل.

إن مذكرات لورنس سجلت سفرًا في تصوير حالة العرب وسداجتهم يقول «فمنذ أن وطأت قدمي أرض العرب وأنا حر في الاختيار، لأتلقى الأوامر من أحد» وتحدث عن متاعبه لمدة سنة ونصف أمضاها مع الحركة العربية لمعدل ١٥٠٠ كلم شهرياً يقطعها على متن الجمل عدا عن السفر بالطائرات أو السفن أو السيارات المصفحة «وكنت خلال هذه المدة قد جرحت مرارًا وقاسيت الكثير من الألم والجوع والبرد والقذارة.

وهذه المتاعب ما كانت لتعني شيئاً نظراً لعدم اكتراثي بما هو جسدي وإنما هناك الخداع المرهق الذي اضطررت أن أحمل نفسي وزره وهو ادعاء قيادة ثورة وطنية لعنصر آخر بعد أن لبست لها لباساً لا عهد لي بمثله من قبل، وتسلمت بلغة أجنبية يصعب علي التبشير بها، مع اليقين التام بأن (الوعد) التي أطلقها للعرب لن تكون لها أية قيمة عملية فيما بعد إلا بمقدار ما سيظهر العرب أنفسهم من قوة»<sup>(٢٤)</sup>. لقد كان هذا الضابط. يجلب أكياس الذهب (ألف ليرة ذهبية)<sup>(٢٥)</sup> في كل كيس وينقلها على الجمال كي يوزعها على قبائل العرب مواكباً ذلك ببذر مبادئ القومية. يقول: «ولكن لم يكن لي الحق أن أجرّ العرب إلى معركة حياة أو موت، في غفلة منهم، وأدعهم يجرون وراء شبح حق»<sup>(٢٦)</sup>.

وغريب أن يكون هذا الشاب قد زود بمعلومات عن طباع الشرقيين في حين أن كثيرين منا لم يتعرفوا عليها حتى اليوم.

يقول: «ومن عادة الشرقيين أن يثقوا بالأشخاص أكثر من المعاهدات. وعلى هذا الأساس، طلب العرب مني بصفتي وكيل حر أن أضمن وعود الحكومة البريطانية»<sup>(٢٧)</sup>.

● بذور التحديات السياسية ودورها في تأزم العلاقات....

إذا كان مغتصبو فلسطين لم يغيروا خططهم العسكرية وقد سئل وزير الدفاع الصهيوني عن السبب الذي جعلهم يطبقون خطتهم باحتلال سيناء والوصول إلى القناة ١٩٥٦م في هجومهم في صباح الخامس من حزيران ١٩٦٧م فأجاب باطمئنان: «إن العرب لا يقرأون وإذا قرأوا لا يفهمون».

إذا كانت هذه قناعاتهم فلماذا لا تكون الترتيبات التي طبقت منذ القرن التاسع عشر حتى اليوم هي نفسها، وأن لورنس ما زال يظهر بوجوه جديدة، والشرقيون يصدقون وعود الأشخاص أكثر من المعاهدات المكتوبة.

إن قراءة متأنية لما أصبح معروفاً بالتأكيد تسهل على الباحث فهم كل الأزمات في المنطقة العربية خاصة والعالم الإسلامي عامة وفي مقدمها تأزم الحوار ونشوء العنف بين أصحاب المذاهب الإسلامية التي سبقت بصراع أصحاب الأديان من قبل. إن لورنس نفسه كان يشكو من عدم تمكنه، كما يجب، من إثارة المسيحيين ضد جيرانهم المسلمين لأنهم كانوا لا يشكون منهم ولا يقبلون الغدر بهم.

فعلى سبيل التلميح نقتبس صورة أوردها الأمير شكيب أرسلان، لقد صدرها بقوله بأن كثيرين من المسلمين رفضوا خيانة بني قومهم ولم يستجيبوا للمحتل «ولم تنقض عليهم السماء من فوقهم ولا خسفت بهم الأرض من تحتهم» إلا أنه مع الأسف الشديد هناك من لبي نداء الخيانة «كانوا يعرضون عليهم خدمتهم في مقاومة إخوانهم ويقومون بها بكل نشاط ومناصحة، ويبدون كل أمانة لهم في أثناء تلك الخيانة.

ولولا هذا التبرع بالخيانة، والتسرع إلى مظاهره الأجنبية على ابن الملة، لما استأسد الأجنبي وصار يتحكم في المسلمين هذا التحكم الفاحش... بل قام بحملهم على الموت لأجل الموت».

إن الأمير شكيب أرسلان سطر أروع حوار في مخاطبة الذين يلبون رغبة الأجنبي في الاقتتال إلى جانبه أو بإحداث الاقتتال الداخلي في بني قومهم، فالموت

## ● علي لاغا

موتان «أحدهما الموت لأجل الحياة: وهو الموت الذي شرعه الله (عزوجل) للمؤمنين بالدفاع عن أرضهم وعرضهم إذا ما غزاهم عدو غاشم، ويقول: «إنه الموت الذي يموته الإفرنسي لأجل حياة فرنسا والألماني لأجل حياة ألمانيا، والإنكليزي لأجل بريطانيا العظمى - وهلم جرى - ويجده على نفسه واجباً لا يتأخر عن أدائه طرفة عين».

«وأما الموت الثاني فهو الموت لأجل استمرار الموت، وهو الموت الذي يموته المسلمون في خدمة الدول التي استولت على بلادهم» ولكن هناك موت لأجل الموت مباشرة بدون واسطة وهو عندما يموت المغربي في قتال أخيه المغربي الذي قام يحاول أن يزحزح شيئاً في النير الإفرنسي الذي كاد يدق عنقه»<sup>(٢٨)</sup>.

مرة أخرى ليس الهدف مما تقدم اقتباسه عن حقبة استعمارية سابقة إلا للإضاءة على آخر نسخة من أوجه العنف والصراع والتأزم بين أصحاب المذاهب الإسلامية.

### ساحات مواجهة:

#### أولاً: التيار القومي:

صحيح أن كثيرين ابتعثوا للدراسة في الغرب إلا أن برامج الإصلاح التي طرحوها عند عودتهم كانت شكلية ولا علاقة لها بالمضمون.

لم ينتبهوا إلى أن القوميات أشعلت نيران الحروب في أوروبا، بينما كانت النهضة العلمية تتعلق باكتشاف معادلات طورت المادة وحسنت الوضع المعيشي، وأبدعوا بالنظم الاجتماعية والسياسية وانتبهوا إلى أنه بإمكانهم التوصل إلى وجوب حل مشاكلهم الاقتصادية على حساب الدول التي تم احتلالها وهي بالضبط العالم الثالث وجنوب أمريكا اللاتينية، وخصوصاً بعد تجارب الحروب المريرة التي تركت في النصف الأول من القرن العشرين ١٥٠ مليون قتيل، هذا عدا عن الجرحى والمعوقين والدمار الذي أزال عواصم بكاملها إضافة إلى ما لحق

● بذور التحديات السياسية ودورها في تأزم العلاقات....

بالاقتصاد وهذا يعني أن العالم الإسلامي برمته ضمن هذه الدول. إن الباحث الذي عاش مراحل الحرب اللبنانية وشارك في كل فصولها ما قبل الحرب وأثناء الحرب وفي أعقابها (العسكرية والسياسية والاجتماعية). ثم توج ذلك ببحث علمي أمضى فيه خمس سنوات خرج بالنتائج التالية: «إن الدول الصناعية شرقية كانت أم عربية أو أمريكية لا تريد أن تضطر لحرب عالمية ثالثة ورابعة... بالبحث عن سوق استهلاكية لبيع المنتجات الصناعية وتأمين المواد الأولية التي كانت من أبرز الأسباب التي أدت إلى حدوث حربين عالميتين. إذا لابد من إيجاد منطقة استهلاك مشتركة لكل هذه الدول المصنعة، كي تجعل منها سوقاً دائمة لبيع صناعاتها ومنتجاتها وسلب خيراتها، ولكل دولة منها حصتها ومناطق نفوذها ونوعية البضاعة التي تستوردها وهذا يستوجب: العمل على إبقاء البلدان التي هي ضمن دائرة السوق المشار إليها أنفاً في حالة استهلاكية دائمة.

وجوب إبقائها في دوامة من المشاكل والاضطرابات الدائمة لأن الثبات والاستقرار من مسببات النماء والخصب.

والمنطقة العربية بالذات، وإيران من بينها، يلزمها مشاكل متتالية لأنها قادرة على التحول إلى دول متقدمة ومصنعة بفضل ما لديها من مقومات الحضارة والتاريخ وتوفر المال والموارد الخام، إضافة إلى الفتوة والنشاط عند سكانها. عندما تصل هذه الدول (السوق الاستهلاكية) أو بعضها إلى حالة الإشباع من المنتجات الصناعية أو الغنى المالي، يجب تدميرها كي يضطر أهلها إلى شراء حاجياتهم من جديد ومن ثم وضع كل اقتصادهم بتصرف الدول الصناعية التي ستعيد ترميم المنشآت المهدمة بواسطة شركاتها عبر عقود مالية يمكن لأي ثاقب أن يتخيلها في أية دولة حلت بها تلك التدابير<sup>(٢٩)</sup>.

إن أفضل طريقة لضمان تنفيذ هذه الخطة هي زرع جسم غريب في المناطق الحساسة كما هو في فلسطين، قلب المنطقة العربية، إضافة إلى بعث قوميات تم

## ● علي لاغا

العمل على إثارة الفتن فيما بينها، ولما استهلكت إلى حد ما كان العمل على إثارة النعرات المذهبية بين المسلمين كما عمل على إثارة حروب طائفية في لبنان في مرحلة ما، ثم تجهد عوامل الفتنة لإكمال مشروع الفتن في مصر بعد أن نجحت الخطة في أعالي وادي النيل. (السودان، أثيوبية، ارتيريا تشاد وغيرها)، بهدف إبقاء السكان في حالة تخلف دائم وهذا يستوجب صرفهم إلى التلهي بدراسات لا طائل منها إذ ليس بالإمكان منعهم من التعلم بشكل صريح<sup>(٢٠)</sup>.

بنظرة سريعة على كل ما تمرّبه دول المنطقة من صراعات وفتن نفهم أن كل ذلك له هدف واحد هو إبقاء هذه الدول المستهدفة وشعوبها في حالة استهلاكية، وبشدة، لأن الحروب تستنفد كل الطاقات وتلزم الفرقاء الذين يخوضون غمارها إلى الإنفاق بسخاء حتى الإفلاس. وكلما ملّوا من الاقتتال والانتحار تحت راية، استبدلت باللوحه المعروضة لوحه أخرى.

إن البحث لا يستوعب التوثيق لكل مراحل نشوء الفكر القومي الذي ما زالت مفاعيل دوره في إشعال الفتن مستمرة حتى اليوم، مروراً بمرحلة استيراد النظم المتفرعة من الماركسية تحت أسماء شتى، اشتراكية تقدمية، ثم الانتقال إلى الديمقراطية، مع كل الآثار السلبية التي تشاهد فإن المنطقة ترفع فيها لوحه فتنة جديدة، يبدو أنها مشبعة بوسائل شديدة القابلية للاحتراق بدأت ملامحها منذ عقود في سوريا علوي - سني .

ثم أخذت شكلها الواضح في العراق مع بقع ملتهبة في الباكستان والهند (شيعي - سني) وبدأت تتشكل موجة فتنة في لبنان شيعي - سني أدى إلى طرح الهلال الشيعي الذي أخذ طريقه ليتصدر أحداث المنطقة الدامية. هذا عدا عمليات الاستفزاز المستمرة لإثارة الفتن الطائفية هنا وهناك.

هذه هي اللوحه الجديدة التي آل إليها وضع المنطقة.

ويمكن للباحث أن يتوقع راية اللوحه الجديدة بعد استهلاك لوحه الفتنة الشيعية السنوية بحيث ستكون صراعاً بين الفرق الاعتقادية عند أهل السنة

● بذورالتحديات السياسية ودورها في تأزم العلاقات....

أنفسهم، طالما تمكن القابضون على صنع الأحداث وتحريكها من إشعال فتنة (فتح - حماس) في فلسطين يعزز فرضية الحكم بأن حماية الكيان الصهيوني تتم بما يحدث خارج الأرض المحتلة.

### نظرة في الفتنة المذهبية :

هل أن كل ما يحدث من فتن أو بعد لأحداث أخرى هو فعلا من موجبات تنوع المذاهب؟ إذا كان ذلك كذلك فكيف يمكن تفسير قرون زادت على الثلاثة عشر قرنا ونيف من العيش معا ليس وسط التنوع المذهبي في دوائره الصغرى والكبرى كما هو أيضاً مع أصحاب الديانات الأخرى لوأن التنوع يوجب على كل فريق أن يستأصل من يخالفه كي يستقر الأمر إلى رأي واحد وفريق واحد ولون واحد؟

فإذا كان الباحث منصفاً وسليماً العقل فإن قراءته للتاريخ تراه أن الصراعات إنما كانت للسيطرة وليس لما هو من مستلزمات اتباع هذا المذهب أو ذاك فالثورات والحروب توزعت على الجميع بغض النظر عن مذاهبهم والمقصد منها واحد لا ثاني له: السلطة، السلطة، السلطة. وهذا ما يسمى مجازاً بالاختلافات السياسية، ولفظة السياسة مظلومة لأنها تعني تدمير الأمور...

حري بأمتنا أن تفرد من بين حكماؤها مجلساً يقوم بدراسة مركزة، ولولأول مرة يلزم الناس استقاء معلوماتهم ومعارفهم عن طريقها وبالتأكيد وليس استباقاً للنتائج. فإن أيًا من المذاهب الإسلامية لا يستوجب هذا الصراع وهذه الحروب. فالله سبحانه وتعالى خلق الناس مختلفين وزين لكل مجموعة عملها ولكنه سبحانه وتعالى أوجب التوحد في الدائرة الكبرى، والأمة ليست بحاجة - كما أنه من غير الممكن - أن تتوحد على مذهب واحد، هكذا عاشت منذ أربعة عشر قرناً والمسلمون يتباهون برحمة الاختلاف.

إن ما يجب العمل له هو إيجاد مشروع مشترك يركز على حل مشاكل الناس



## ● علي لاغا

الاجتماعية والرفقي بتنظيماتهم السياسية، ونقلهم من الفقر إلى الغنى، ومن التظالم إلى العدالة، ومن الفردية إلى جماعية يتحكم بمصيرها الحكماء، عباقرة الأمة مع ما يمكن أن يفيدوا منه مما هو حاصل عند الأمم الأخرى وغير مخالف لأساس شريعة الإسلام التي تحل الطيب وتحرم الخبائث.

إنه من المفيد أن نستعيد قول سلطان العلماء العزبن عبدالسلام رحمه الله تعالى: «إذا اجتمعت مصالح ومفاسد: فإن أمكن دفع المفاسد وتحصيل المصالح فعلنا ذلك، وإن تعذر الجمع: فإن رجحت المصالح حصلناها، ولا نبالي بارتكاب المفاسد، وإن رجحت المفاسد دفعناها، ولا نبالي بفوات المصالح... وإذا توهمنا المصلحة المجردة عن المفسدة الخالصة أو الراجعة احتطنا لتحصيلها. وإن توهمنا المفسدة المجردة عن المصلحة الخالصة أو الراجعة احتطنا لدفعها»<sup>(٣١)</sup>.

إنه من المؤكد أن لا مصلحة تجلب من اقتتال أصحاب المذاهب، وأنه لا رابط بين الأداء السياسي وبعث الفتن المذهبية، إن الإنسان الذي جبل على دين ما أو مذهب ما أضحي ذلك من جملة مكونات مشاعره الفطرية، لا بل بات من جملة غرائزة، وهذا يعني أن الاصطدام بها غير ممكن على الإطلاق وتجارب ذلك عند كل الأمم الأخرى ومنها أمة الإسلام تؤكد صحة هذا المفهوم وكذا علم النفس والاجتماع يؤكدان ذلك.

إن الجهد يجب أن ينصب على تطوير مصالح الناس وتأمينها وليس على تغيير دين هذا أو مذهب ذلك، فهذه مسائل تترك لاقتناع كل فرد، ومن كان يحب أن ينشر الذي يؤمن به فليخرجه إخراجاً جميلاً ويجعله معشوقاً وقصوداً من الآخرين.

إن العنف لا ينشر ديناً أو مذهباً، إنها مسألة أحاسيس ومشاعر مقرها مركز العاطفة والكراهية عند الإنسان، وما كان في هذه الدائرة فهو فح لا يتم التعامل معه إلا وفق السنن الناظمة له بالدعوة والموعظة الحسنة.

إنه ليس صراع مذاهب بل هو لوحة جديدة من لوحات الاقتتال بين المتخلفين

## ● بذور التحديات السياسية ودورها في تأزم العلاقات....

والمهوزمين حيث يقتل فيه الشقيق شقيقة ظناً منه أنه يتحرر من متاعبه على حد نظرية أحد علماء الاجتماع (ترانزفانون).

إنها حرب الذات على الذات، إنها استيراد حكم نزل بحق مجرمين: ﴿فَأَقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ ذَلِكَ خَيْرٌ لَكُمْ عِنْدَ بَارئِكُمْ﴾ (سورة البقرة: ٥٤). إن الله تعالى أنزل بحق المتخاصمين من يهود والتائهيين المتجادلين في أمور لا لزوم لها بقوله: ﴿ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُمْ مِّنْ بَعْدِ ذَلِكَ فَهِيَ كَالْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً﴾ (سورة البقرة: ٧٤).

إن من يحس ويشهد حدة الكراهية التي قفزت إلى المسرح بسرعة مذهلة بين أتباع مذاهب إسلامية لا يسعه إلا أن يتذكر تلك الآية الكريمة، إن قصص القرآن فيه تلميح لمن يقرأه من المسلمين أن من يفعل هذا تكون هذه هي صفاته. والغريب كيف يمزق شمل أمة وتخطف البسمات من وجوه الأطفال ويكفهر الجو وتظهر في سماء الوطن سحب دكاء ويحمر الشفق بلون الدماء إنه لأمر عجيب وغريب؟

إن كل الدول الكبرى فيها تعدديات بالأصول والفروع، ديانات ومذاهب وقوميات، والسياسة عندهم تنظيم لأحوالهم بينما هي في بلادنا مع قلة تنوعها شر مستطير تغذيه جهالة شعب ومهارة طامعين بخيرات أرضه ما ظهر منها وما بطن.

## الهوامش:

١. جورج سباين، تطور الفكر السياسي، الكتاب الأول، ترجمة حسن جلال العروسي، دار المعارف، مصر، بدون تاريخ، مقدمة الطبعة الأولى، د. عثمان خليل عثمان، ص ١٧.
٢. المرجع نفسه ص: ١٨.
٣. المرجع نفسه ص: ١٩.
٤. رواه مسلم، باب الحكم بالظاهر واللعن بالحجة، كتاب الأفضية، ج ١٢، دار المعرفة بيروت، ط ١، سنة ١٤١٤هـ - ١٩٩٤م ص: ٢٣١ رقم: ٤٤٤٨.
٥. المصدر نفسه الحديث ٤٤٥٠.
٦. المصدر نفسه، الحديث ٤٤٦٢.
٧. المصدر نفسه، الحديث ٤٤٦٥، كتاب الجهاد، السير.

## ● علي لاغا

٨. المصدر نفسه، الحديث ٤٤٩٧.
٩. محمد أبو زهرة، تاريخ المذاهب الإسلامية، في السياسة والعقائد وتاريخ المذاهب الفقهية، ج ١، دار الفكر العربي ١٩٨٩ بدون رقم طبعة صفحة: ٧.
١٠. محمد أبو زهرة، الاقتباس بتصريف، المرجع نفسه ص: ٧ - ١٠.
١١. الصحوة الإسلامية بين الاختلاف المشروع والتفريق المذموم، مؤسسة الرسالة، ط ٣، ١٤١٤هـ - ١٩٩٣م، ص ٤٤ بتصريف.
١٢. علي لاغا، مدخل إلى العلوم السياسية، دراسة مقارنة بين النظام الإسلامي والأنظمة الغربية دار بيروت المحروسة، ط ٢ سنة ١٤١٥هـ / ١٩٩٤م، ص ٥١ - ٥٢، جاء في الإهداء ولدي مصعب: إذا رأيت أمة مهزومة وشعباً متخلفاً أعلم أن ذلك سببه عقم فكرها السياسي، وجهلها بسنن الكون ونواميسه، وأعلم أن من امتلك تلك النواميس كان الكون طوع يديه».
١٣. زبدة التفسير من فتح القدير. تفسير الآية.
١٤. الإقتباس المطول من ابن خلدون المقدمة، دار احياء التراث العربي الكتاب الأول، ص ٣٥ - ٣٦.
١٥. هذه المعلومات مستقاة بتصريف من: روجر أون، الشرق الأوسط في الاقتصاد العالمي ١٨٠٠ - ١٩١٤، ترجمة سامس الرزاز، مؤسسة الأبحاث العربية ط ١، بيروت ١٩٩٠م، ص ١٨ حتى ٤٧.
١٦. خير الدين التونسي «١٨١٩ - ١٨٨٩» مقدمة كتاب أقوم المسالك في معرفة أحوال الممالك، تحقيق ودراسة معن زيادة، دار الطليعة بيروت، ط ١، سنة ١٩٧٨م، ص: ١٠٩ - ١١٤.
١٧. المصدر نفسه، ص ١١٦ - ١١٧.
١٨. المصدر نفسه، ص ١٢١.
١٩. خير الدين التونسي، المصدر نفسه، ص ١٠٨.
٢٠. عندما جاء محمد ابراهيم باشا مدعوً من الدولة الفرنسية قتل الموازنة عدد كبير من الدروز ١٨٤٥م في جبل لبنان ولما انكفأ ثأر الدروز من الموازنة بأحداث ١٨٦٠م التي جسرت لدخول النفوذ الأوروبي مباشرة، فرنسات دعم الموازنة وروسيا تدعم الأرثوذكس وبريطانيا تدعم الدروز وعقب مؤتمرات لهذه الدول تم تأسيس سنجق جبل لبنان وتحركات عجلة الفتن والثورات.
٢١. محمد فريك بك المحامي - تاريخ الدولة العلية العثمانية، دار الجبل، بيروت، ط ١٣٩٧هـ، ١٩٧٧م، ص ٣١٩ - ٣٢٢.
٢٢. محمد فريك بك المحامي. تاريخ الدولة العلية العثمانية، دار الجبل، بيروت، ط ١٣٩٧هـ، ص ٣١٩ - ٣٢٢.
٢٣. المصدر نفسه، ص ٤١٣.
٢٤. ت. ا. لورنس، أعمدة الحكمة السبعة. المكتبة الأهلية، بيروت، ط ٢، ١٩٧١م، ص ٢٥٤ - ٢٥٥.
٢٥. المصدر نفسه، ص ٢٤٨.
٢٦. المصدر نفسه، ص ١٣٥.
٢٧. المصدر نفسه، ص ١٣٤.

● بذور التحديات السياسية ودورها في تأزم العلاقات....

- ٢٨ . الأمير شكيب أرسلان، لماذا تأخر المسلمون ولماذا تقدم غيرهم مكتبة الحياة بيروت، طبعة جديدة ومنقحة، بدون تاريخ، ص ٦٠-٦٢.
- ٢٩ . إنه على سبيل المثال تم توقيع مع الشركات الأجنبية تلزمها إعادة ترميم منشآت الكويت قبل أن يتم تحريرها وفي لبنان لوحظ ما يلي: تقدم دولة ما من الدول الصناعية فرضاً إلى لبنان شرط أن تنفذ أعماله شركة وطنية عائدة للدولة المانحة إنه في رسالة مفتوحة وجهها صاحب مجلة الشراع إلى رئيس الحكومة الأسبق رفيق الحريري رحمه الله بين فيها مراحل انفاق القرض بحيث تقوم الشركة الجديدة بنقل الالتزام إلى آخرين بحيث أن مبلغ ٥٠٠ مليون دولار يصل منها إلى الواقع ١٠٠ مليون دولار فقط وعلى الشعب اللبناني أن يدفع أصل المبلغ مع فوائده.
- ٣٠ . على لاغنا، الاتجاهات السياسية في لبنان ١٩٢٠-١٩٨٢، مؤسسة الرسالة - بيروت ط ١، ١٤١١هـ-١٩٩١م، بتصرف ص ٥٨٠-٥٨٢.
- ٣١ . المعز عبد السلام، الفوائد في اختصار المقاصد أو القواعد الصغرى. تحقيق إياد خالد الطباع. دار الفكر. بيروت ط ١٤١٦هـ-١٩٩٦م، ص : ٤٧-٤٨.